الدكتور السعيد الورقي

الأعمال الكاملة

(٤)

مشاهد من عالم الغربة

قصص قصيرة

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

صدرت الطابعة الأولى
١٩٨٤

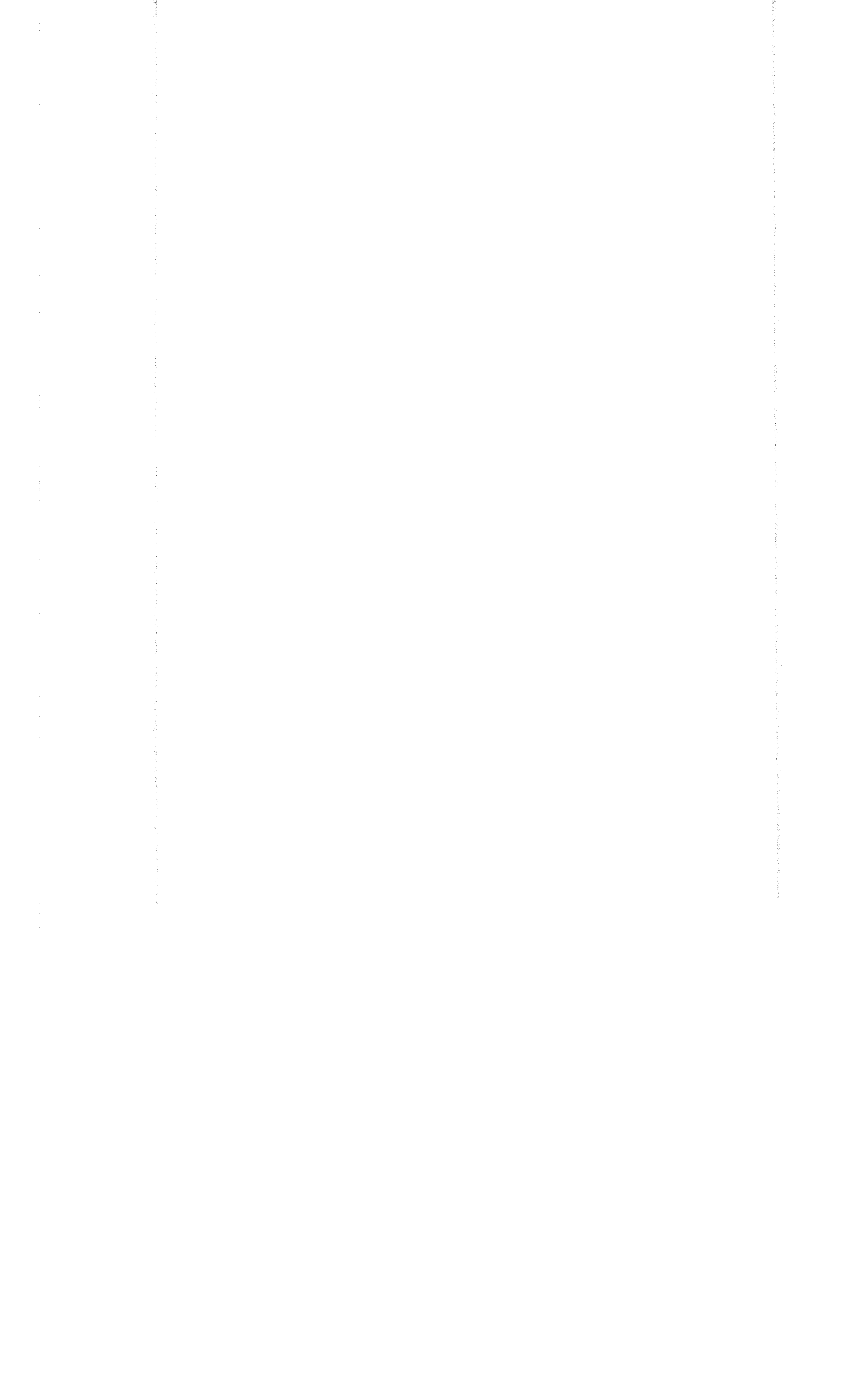
مشاهد من عالم الغربة

قصص قصيرة

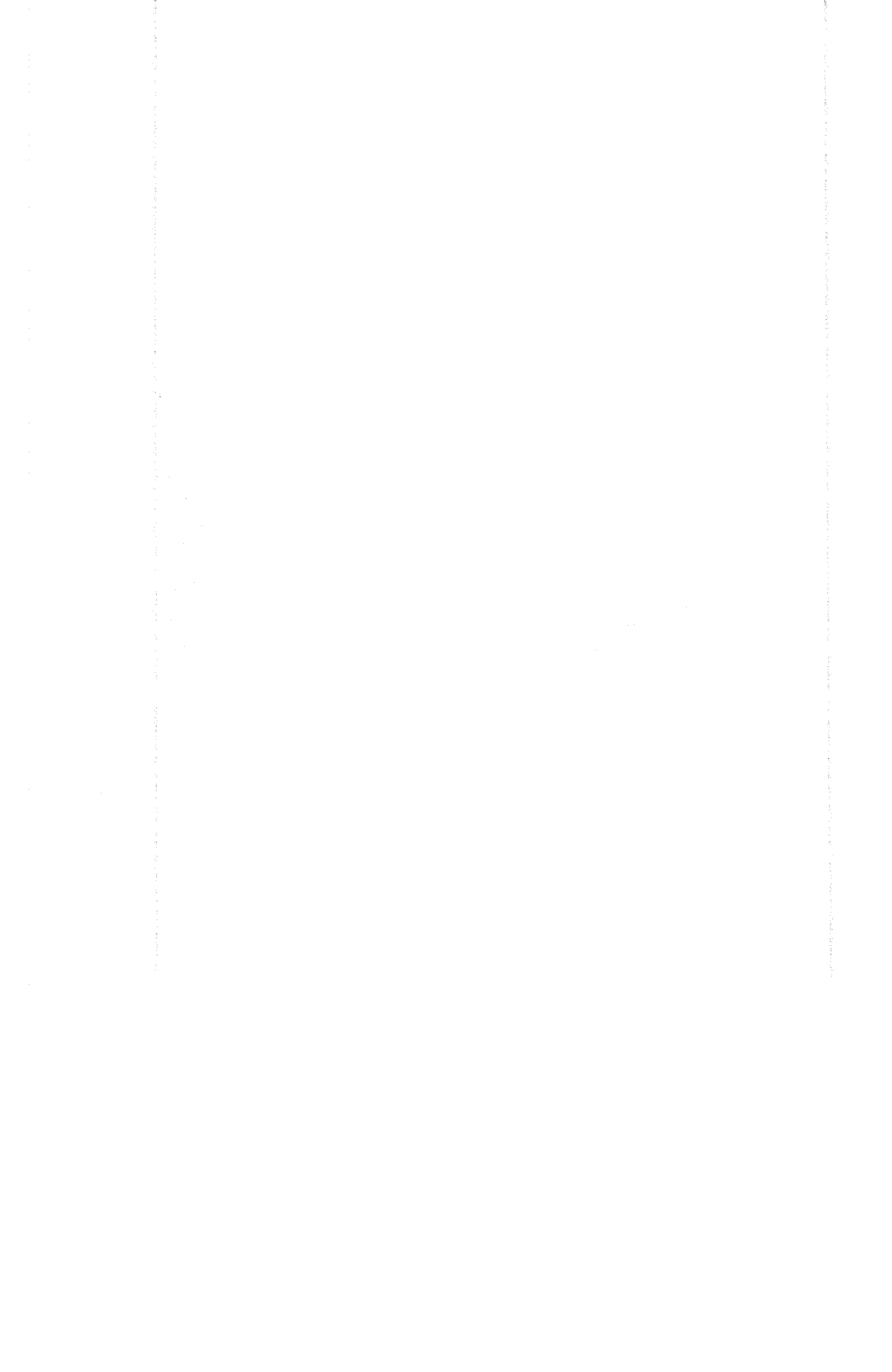


« وذلك حكمة من الله تعالى . إذا وقع القحط والغلاء ، فالنفس دائما تأكل ولا تشبع » .

ابن اياس



الرجوع



انقض في سرعة خاطفة فانتزع الجنيه مني . لم أكن قد قلت شيئاً بعد . أحس بفطرة غريبة أنه المقصود . جاءنا بصحبة جدته . صغير لم يتجاوز الخامسة . لا تكاد تشعر به . طفل صغير بصحبة جدته في زيارة لبيت غريب يدخله للمرة الأولى ، لكن ما إن تقترب منه حتى تشدك ألف عين تطل من جميع جهات جسده . عيون عديدة لا تستطيع ان تحصيها يبص منها تلصص مذعور .

عندما اقتربت قليلا ، كان لجدته نفس النظرة إلا أنها أكثر جرأة، خاصة إذا تلاقت بنظرتك . عندما مارست اللعبة مع الصغير أكثر من مرة كانت عيونه ترتد مذعورة . نظرتْ إليّ أمي نظرة أفهم معناها جيداً . أخرجت ورقة من فئة الجنيه . كانت جديدة وبراقة ولها رائحة النقود . قبل أن انطق بشيء انقضت عيون الصغير فانتزعتها من يدي . تمتمت الجدة بألفاظ لم أتبينها ، ونظرتها ترقب الورقة المالية وهي تتحرك في ذعر بين أصابع

الصغير . استجدت نظرتها نظرة الصغير . . هاتها .

انتفض مذعوراً ، واحتمى بأرجل مقعد ركني . دس الورقة بين كفيه ونظرته القلقة .

قالت الجدة من خلال ابتسامة صفراء متمرسة :
ـ هات ربع الجنيه أحفظه لك معي .

تفحص الصغير ورقة الجنيه . قلبها بين يديه . قربها جيداً من عينيه . انفجر مقهقها :

ـ تضحكين مني . انه نصف جنيه .
أبدت العجوز مرونة أكثر . اتسعت الضحكة ولم تفارق نظرتها أصابع الصغير . حقا . إنه نصف جنيه كامل . سأحفظه لك . هاته .

ازداد الصغير انكماشاً بين أرجل المقعد ، وتوترت نظراته حول كنزه . انصرفت العجوز لمتابعة الحديث بنصف وعي . بين الحين والحين تقفز بعينيها هنا وهناك مع أصابع الصغير الذي هدأ قليلاً لسكوت جدته عنه .

* *

قال ابن إياس : فلما مضت ودخلت سنون المجدبة . أول من جاع الملك الريان ، فانتبه من منامه نصف الليل وهو يصيح : الجوع . الجوع . فأتاه

الطباخ بالمائدة .

فقال له الملك الريان : من أعلمك بأني جائع حتى جئتني بطعام من غير ان يعلمك أحد بي .

فقال : أعلمني بذلك يوسف .

فلما أكل وفرغ ، جاع في الحال .

*

تناثرت أطراف آدمية متهرئة من آثار حروق متعمدة . كنت أدوس فوقها اثناء سيري الذي لم يكن لجهة معلومة . في الحقيقة لم أكن اشعر أنهاحروق وأطراف حقيقية برغم وضوحها الكامل . على ضفتي الطريق كانت الصرخات هائلة رغم أني لم أسمعها جيداً . اصطدمت بشيء فتناثرت أنا الآخر أطرافاً بها حروق متعمدة وصرخات هائلة .

*

أعادت أمي النظر ذا المعنى إليّ . فهمت أنها تريد أن أضع حداً للحوار الصامت بين الجنيه ولهفة العجوز وذعر الصغير . ناولتها على استحياء ورقة أكبر . كانت بخمسة جنيهات . قفزت أصابعها النحيلة فاحتوت أكثر من نصف الورقة . تمتمت بألفاظ مبهمة ، ودست الورقة في مكان أمين . ولم تتوقف عن النظر إلى الصغير ، ولم يتوقف الصغير عن النظر إليها وإلى كنزه .

قليلاً ، قليلاً . . هدأت حركة الصغير ووقع بين يدي المقعد نائماً وقد أطبق كلتا يديه على الجنيه ودفنها بين ذقنه وصدره وتكور بلا حركة .

*

قال : وذلك حكمة من الله تعالى . إذا وقع القحط والغلاء ، فالنفس دائما تأكل ولا تشبع . أما أهل مصر ، فكانوا يأكلون ولا يشبعون .

*

تجمعت الأطراف فوق بعضها البعض . كنت بأسفلها بضعة أطراف مكومة . استطالت ذراعي عالية فوق الأطراف . شعرت بملمس النهار في اصبعي . كان حريفاً وملحي المذاق . لم أستطع أن اتذوقه . أطلت الشمس ما بين فرجات أصابعي ساخنة . ولفح الهواء الترابي جنباتي . كان سياطاً من رماد محترق . تداخلت المرئيات في دوامة . كان سياطاً من رماد .

*

انتفض الصغير مذعوراً يبحث عن كنزه . دار حول نفسه ثم اندفع نحو جدته لكماً وعضاً ورفصاً .

قالت بعد أن تحسست صدرها بنبرة ارتياح :

لـم اشاهده ولا أعرف أين هو .

ثم وهي تجذبه من ذراعه وتهم بالوقوف :

ـ لقد أطلنا . وآن لنا أن نذهب .



السفر من بلاد الغربة



لم تعد أشيائي الصغيرة تبهرك . تابعتُ في صمت مقلق تسرب السعادة من نظرتك ، وأخذت أرقب سحابة الحزن تزحف في اصرار كسا ضحتك الوثابة طعماً خانقاً . قلق عليك ، وأنا أتابع ملامح الفتور يقتل بريق عينيك . قالت : لا شيء يهم ، ما دمنا قد امتلأنا حباً. وتحسستْ أصابعها أصابعي والتقطتها في حنان دافىء . ما امتع أن نحيا حباً . قالت : إنهم يريدون مقابلتك . ترددت حائراً بين القبول والرفض . وخمنت ماذا وراء المقابلة .

*

تناثرت الكدمات فوق جسدي هنا وهناك . هالات زرق بحواف بارزة . كتمت صرخات الألم ، وابتلعت في صمت مذاقها السوطي . في حلقي عطش حاد ، والماء على مبعدة خطوة . مددت كل أطرافي . لم أستطع الاقتراب منه . زحفت ألف ميل ولا يزال الماء على مبعدة الخطوة ، والعطش سكينا

مغروساً في حلقي وكدمات الألم هالات ماء ونار .

*

صوت حبيبي هو ذات آت . طافراً على الجبال . قافزاً على التلال . حبيبي هو شبيه بالظبي أو بغُفْرِ الأيائل . هوذا واقف وراء حائطنا ، يتطلع من الكُوى . يوصوص من الشبابيك . أجاب حبيبي وقال لي : قومي يا حبيبتي ، يا جميلتي . وتعالي . لأن الشتاء مضى والمطر مر وزال . الزهور ظهرت في الأرض . بلغ أوان القَضْب ، وصوت اليمامة سمع من أرضنا . التينة أخرجت فِجَّها ، وقُعَالُ الكروم تُفيحُ رائحتها . قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالي . يا حمامتي من محاجىءِ الصخر ، في ستر المعاقل . اريني وجهك اسمعيني صوتك . لأن صوتك لطيف ووجهك جميل[1] .

*

قال ذو اللحية الزرقاء لزرقاء اليمامة : أصحيح ما يشاع عنك يا زرقاء . أجابت بالايجاب .

عندما شرعت تبسط له الأمر ، انتابه ذعر أخفاه في استخفاف ساخر . لكنه لم يستطع أن يصمد حتى النهاية . أخذته

عزة آثمة. أمرها ففقأت عينيها . نظر فيهما فهاله الأمر . فتل من شعيرات لحيته الزرقاء أنشوطة . علق طرفها في جذع الزرقاء وتدلى وقد جحظت عيناه تحملقان في فراغ .

*

لم أستطع أن اوفق إلى حل يرضيها . كلما شاهدتني حاصرتني بأسئلة لا إجابة لها . تبريرها أنها تحبني وتريدني بأسرع ما يمكن . الحياة قصيرة وعلينا أن نستغل كل لحظاتها .

قبل أن أفتح فمي بكلمة ، وضعت اصبعها على فمي . أعرفُ ما تريدُ أن تقوله . لكن لا تقلق . كل شيء هين ميسور . فقط عليك أن تكون جاداً .

تناثرت لمسات الحنان . ذابت تحفظاتي ، وتبخرت سحابة القلق قبل أن تمطر .

تمتمتُ في استسلام . . ليكن إذن .

*

في الليل على فراشي ، طلبت من تحبه نفسي . طلبته فما وجدته . إني أقوم وأطوف في المدينة ، في الأسواق ، وفي الشوارع . أطلب من تحبه نفسي . طلبته فما وجدته . وجدني الحرس الطائف في المدينة ، فقلت : أرأيتم من تحبه نفسي . فما جاوزتهم الا قليلاً

حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بي[٢] .

*

كانت مياه البحر راكدة قبل أن أهبط إليها . لم أكن قد مارست العوم من قبل . ومع ذلك لم أفكر مطلقاً في أنه من الممكن أن أغرق . كانت تتفرج عليّ من مرتفع . تهم أن تقول شيئا ما ، ولكنها حبست صوتها بداخلها . تحركت إلى الأمام قليلاً ، ولم تلبث أن انسحبت . حملتني صفحة الماء . كنت مستلقيا على ظهري وفجأة ، هاج البحر وارتفع . لم أغرق . ولكني كنت عاجزاً عن النجاة . وحينما حاولت أن أصرخ طالبا النجدة ، لم يخرج صوتي لأبعد من جوفي .

*

أفقت مذعوراً على صوت طرقات ملحة على باب شقتنا . نهضت مهرولاً . لم يستيقظ على صوت الطرق سواي . فتحت الباب ، ولم أجد أحداً . تلفت حولي وخرجت خطوتين . نظرت في أعماق الدرج . كانت تباشير الصباح ندية . وفجأة ارتطم شيء عنيف بمؤخرة رأسي ، فحملقت في الفراغ وأنا أتهاوى .

*

قلت لها : نقيم في منزلنا . هذا هو الحل .

قالت : محال ، فأنا أريد مسكنا مستقلاً .

قلت : تعرفين جيداً أني لا أستطيع تحقيق هذا . على الأقل الآن .

قالت : عليك برحلة الآخرين . بضعة سنوات نحقّق بعدها كل شيء .

قلت : وهل يتسع العمر .

حركة كتفها لأعلى وأسفل ولم تكمل الحديث .

*

قد خلعت ثوبي ، فكيف ألبسه . قد غسلت رجلي ، فكيف أوسخها . حبيبي مد يده من الكُوَة ، فأنّت عليه أحشائي . قمت لأفتح لحبيبي ويداي تقطران مُرّاً ، وأصابعي مرّ قاطر على مقبض القفل . فتحت لحبيبي ، لكن حبيبي تحول وعبر . نفسي خرجت عندما أدبر . طلبته فما وجدته . دعوته فما أجابني . وجدني الحرس الطائف في المدينة . ضربوني . جرحوني . حفظة الأسوار ، رفعوا إزاري عني(٣) .

*

وفقت أخيراً في العثور على عمل ببلاد الكنوز والرمال .

حملت النبأ إليها . لم أكن قد رأيتها منذ فترة . كنا قد تخاصمنا أثر مشادة كلامية . هي التي تشاجرت ، وهي التي تخاصمت في الواقع . لكني لم اجد لها ظلاً . قلقتْ على نفسها معي ، فرحلت مسافرة . هكذا قال لي آخر من رآها .

معي حقيبة وبضعة تذكارات ، وهموم تملأ رأسي الصغير ، وجرح في داخلي ينزف لزجاً أسود .

وبلا وعي أنا الآخر أسافر .

هامش

○ ١ ، ٢ ، ٣ ثلاثة اصوات من نشيد الانشاد وهي على التوالي :
١ - الاصحاح الثاني ٨ - ١٤ .
٢ - الاصحاح الثالث ١ - ٥ .
٣ - الاصحاح الخامس ٣ - ٧ .

الوبـاء



أجمع الذين لم يصابوا بعد أنه وباء . فجأة تنتفخ البطن وتصاب الساقان بشلل حركي ويسقط الانسان مرتمياً على ظهره . تتشنج عضلات وجهه ، وتخمد أنفاسه ، وزبد أبيض يسيل من شدقيه .

تحرك كل المسئولين . لكن الأمر كان جد غريب . لم يكن للمرض مقدمات ، كما أنه لم يكن بحاجة لأكثر من دقائق حتى يقضي على ضحيته . صلصل الذعر في أنحاء المدينة . ولم تعرف الناس ماذا تفعل . احتمى كل واحد بجدران شقته ، وخلت الطرقات من الحياة سوى صوت عربات الاسعاف التي تحولت إلى عربات نقل للموتى ، تباغت الصمت بطرقات قوية حينا تأخذ في الضعف حتى تتلاشى ، لتعود قوية من جديد .

*

تصفحت جرائد الصباح . تنقلت عيناي بين العناوين المزدحمة . نقاش يقتل زميله لرفضه رد مبلغ اقترضه . توفير

اللحـــوم في عيـد الأضحى . لأول مـــرة وكيـــل وزارة لشئـــون الفئران . القانون يقول لضحايا الأدوار المخالفة : ارفعوا قضية ضد المالك . تم تغيير ماسورة المياه وانتظم المرور . اثنان من كبار الأساقفة يشتركان في تـرويج بليـون دولار مزيفـة . درب الهوى دعـارة الجسد والفكـر والملاهي الليليـة مستنقـع فني . استمـرار حبس رئيس مجلس حي لاتهـامه بـالتـزويـر في قـرارات المجلس وتزوير واستعمال محررات مزورة والرشوة . طبيبة تطلب تطليقها من زوجها المليونير . منزل الزوجية جناح بفندق كبير أجره ستـة آلاف جنيـه في الشهر . يـطلب عشرين ألف جنيـه من الشركـة مقابل عدم التعرض . يقتل أباه لرفضه زيادة مصروفـه . يطعن شقيقه طعنة قاتلة بسبب امرأة .

*

قال : فوقف بينهم قائلاً : حتى يلقي الرجل منكم أخاه ، فيقول : « أنج سعد ، فقد هلك سُعيد .

ذلك أن المرأة من أهل البلد ، كان يأخذها الفتيان الفسـاق ويقولـون لها : نـادي ثلاثـة أصوات ، فـإن أجابك أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيها نصنع .

فبلغـه ذلك ، فـأمهلهم شهراً ، ثم دعـا صـاحب شرطته ، وأمره بأن يأتي برأس كل من لقيه خارج منزله

بعد العشاء الأخيرة ولو كان ابنه .

فجاءه في أول ليلة بسبعمائة رأس . وفي الثانية بخمسين وفي الثالثة برأس واحدة[1] .

*

لم تلبث الطرقات أن امتلأت بالفئران ولم يمض على الوباء وقت يكفي . ازدادت المشكلة أمام سيارات نقل الموتى ، إذ كان عليها أن تجاذب الفئران الجثث . كانت الفئران كبيرة الحجم ، في حجم القطط ، قوية ، شرسة وعدوانية .

وبالرغم من أن رجال حمل الموتى كانوا ينجحون في حمل الجثث في النهاية ، إلا أن العمل كان يسير ببطء مؤسف ، خاصة بعد أن ازدادات الجثث الملقاة .

بين لحظة وأخرى . تفتح نافذة . فتحة ضيقة جداً . تدفع منها جثة ، وتقفل النافذة قبل وصول الجثة الى أرض الطريق .

اقتنع هو ورفقاؤه بالفكرة ، فقد فكروا فيها معاً . وانتشروا في شوارع المدينة يقلبون الجثث وينزعون عنها ما له ثمن . يسقطونه في حقائب أعدوها ، ويتنقلون مسرعين .

*

اصطحبتها لتتعرف على جثة زوجها . كانت الجثة لمجهول في

حادث . لم يكن معه ما يثبت شخصيته ، ولم يتعرف عليه أحد ممن نجوا . سحبت الجثة . باردة . شديدة الزرقة ، ورائحة مواد الحفظ تثير الدوار والقيء .

كشفت عن الجثة ، قلت :
تأملي يا سيدتي جيداً . هل هذا هو .
سقطت ذراعه إلى جانبه ، فصاحت بذعر حقيقي :
- أين الخاتم الذهبي والساعة الذهبية ؟

*

قال : فبينا الكتاب يقرأ إذ أُتيَ إليه برجل قد شرب الخمر ، فأمر به فضربت عنقه .

قال : فطوى الكتاب وحلف أن لا يسمع عليه منه حديث . وقال :

حفظلك الله ، تطلب رواية السنة وتصحيحها ، وتتعدى حدود الله هكذا ، والله لا سمعت مني حرفاً أبداً .

فقال : يا فقيه ، هذه الجزيرة كثيرة العنب ، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون ، فيضيعون الاحتراس . فيظهر علينا العدو[٢] .

*

امتـلأت حقيبته عن آخرها ، ولم يتـوقف عن السعي بـين الجثث . بالكاد نجح في اغلاقها . ومع ذلـك لم يتوقف . أخـذ يحشو ثيابه بكل ما يسلخه عن الجثث حتى انتفخ .

عندما هبط الليـل ، كان اليـأس والعمل قـد أرهقا رجـال سيارات نقل الموتى ، فضعفت أصوات سياراتهم وتباعـدت حتى تـلاشت . لم ينقـطع صـوت ارتـطام الجثث بـالأرض ، وعلت أصوات الفئران التي تكاثرت على نحو غريب .

*

قابلت صديقي الطبيب بابتسامة ملأت وجهه . قلت لـه : اين كنت، سألت عنك الجميع . قال : كنت مشغولاً جداً هذه الأيـام . وتابـع حديثـه من خـلال متـابعتي لمـلامحـه التي تفيض بشراً . . لقد شـاركت تاجـراً في مزرعـة للدواجن ، ، واشتريت عشرين عجلاً سأربيها وأسمنها . وأندفع في حديثه . . تصور ، ثمن العجل في حدود أربعمائة جنيه يزداد إلى سبعمائة وربما أكثر بعد ثلاثة شهور . المكسب في العجل إذن . . . . صديقي هـذا كان طبيبا بارعاً . تخـرجنا سـويا ، وعملنـا في مستشفى واحد . سعى لمزيد من المعرفة ، وتوقف قرب نهاية درجة الماجستير بعد أن جاءه عرض للعمل بإحدى الدول العربية . تركنا وعاد بعد أربع سنوات بمبلغ طيب . استثمر بعضه في افتتاح عيـادة ، رجاني أن أعمل معه بها لقاء مبلغ اضافي . لاحظت عليه في الأيام الأخيرة

كثرة تغيبه عن العيادة ، وامتد التغيب فشمل عمله بالمستشفى .

*

قال : وركب البحر هو وبنوه ؛ ذكورهم وإناثهم وحاشيتهم ، فعدا عليهم البحر . فزعموا أن صاحب المركب عزم عليه في ركوب الشاني الذي يتبع المركب ، وقد انتقى فيه الأعزة عليه . فقال له : ومن معي ، فقال : لا سبيل إلى ذلك فلتعن بنفسك فهو الذي نقدر عليه لك .

فرجع إلى الطارِمَة حيث بناته وكرائمه ، وسد غلقها عليهن وعلى نفسه ، فلم ينج منهم أحد[٣] .

*

قلت له : ومرضاك ، والعيادة ؟

قال : أصدقك القول . لم يعد العمل مجزياً . تصور . . العجل يكسب بعد شهرين أو ثلاثة حوالي ثلاثمئة جنيه . فإذا كان لديك عشرون عجلاً ، فإجمالي ما تكسب من العجول فقط ستة آلاف جنيه في ثلاثة شهور . هذا غير فارق سعر العلف الذي تأخذه من الجمعية وتبيعه في السوق السوداء .

أما الدواجن ، فالأمر فيها يا صديقي عجب . وتتابعت ألفاظه . كان يتحدث بنفس الحماس الذي كان يتحدث به يوم

تخرجنا في كلية الطب وكان ، متفوقاً

*

قال · وصرت أتخيل ذلك ، وأمثل الفوز والحصول عليه كما يتخيل مجنون بني عامر الظفر بليلى والانفراد بها من غير نظر لمهوى يردى ولا سبع يعتدى ولا واد يفرق ولا نار تحرق

كأن سعر الراحة رخيص ، ومطلب الخلاص لا يعثر عليه تخصيص(٤)

*

فجأة ، إزداد بطنه انتفاخاً لم يكن من المقتنيات هذه المرة ، شعر أنه عاجز عن تحريك ساقيه ارتعشت أطرافه ، وسقطت الحقيبة فوق الأرض انفجرت وتناثرت محتوياتها تكوم إلى جوارها والزبد الأبيض يسيل من شدقيه

هوامش

١ ـ من أخبار يزيد بالعراق . بيان وتبيين الجاحظ
٢ ـ من أخبار أبي عثمان سعيد بن حكم الأموري بمنرقة اعلام الاعلام لابن الخطيب
٣ ـ من أخبار أبي عمر حكم بن سعيد الأموي اعلام الاعلام لابن الخطيب
٤ ـ حديث لسان الدين ابن الخطيب عن نفسه على عهد محمد بن يوسف في ردة اعلام الاعلام



تصفيق حاد



تـطلبت دواعي الأمن القبض عليك . هكـذا قيل لـه عند الافراج عنه بعد احتجاز دام تسعةشهور .

قبض عليه ، لا يعرف لماذا . وظل بمحبسه هذه الشهور دون أن يحقق معه أحد .

دفعوه مع آخرين لا يعرفهم . لم يسأله أحد عن اسمه ، ولم يهتموا حتى بأخذ بعض بياناته . بعد هذه الشهور التسعة جاء من استدعاه مع غيره . وبعد أن سأله عن اسمه ووظيفته وعنوانه ، قال له : إن دواعي الأمن تطلبت هذا وسيفرج عنه الآن . وأفرج عنه بالفعل .

*

قال ابن بطوطة :

ثم اتبعه أمير جبار قاسي القلب ، متهم في دينه ، يقال إنه كان يعبد الشمس . فدخل المدينة وقبض على كبـار أهلها وأعيـان التجار بها. وأخذ منهم الأمـوال

الطائلة . وجعل في عنق القاضي جامعة حديد .

*

قالت في مذلة متشحة بالسواد : كان عطر أيامي وزاد رحلتي وكل مالي في هذه الدنيا . أجابها مسرباً : الحق لم تتركي مكانا من غير أن تبحثي فيه عنه. اردفت: لم اعد اعرف ماذا أفعل وإن كنت أتوقع اياماً سوداء مقبلة ، أخشى الا اتمكن من التصدي لها . أخرجت من حقيبة يدها خطاباً أشارت به وهي تتابع حديثها . . خطاب المصلحة بفصله لتغيبه .

*

أما أنت يا جميلتي ، فشد ما اخشى عليك ممن يستبيحون العِرْض . داست المماليك وجه المدينة بحوافر جيادها . لعبوا الصولجان بالنهار . واصطفت الحرافيش على الجانبين تصفق . تراهنوا فيما بينهم على من يصيب غطاء الرأس دون الحرفوش . في المساء أكلوا اللحم وشربوا الخمر وتسابقوا في شوارع المدينة -. تخطفوا النساء بعد أن عروا ثيابهن . ولم تتوقف الحرافيش عن التصفيق .

حملتك يا جميلتي بين طيات ثيابي . خبأتك بين ضلوعي . طفت بك الشوارع والطرقات أبحث عن ظل وكسرة وجرعة ماء .

*

في صباح اليوم التالي ، ذهب كعادته قبل تسعة شهور إلى عمله . معه خطاب ارسلته المصلحة في غيابه وتسلمته زوجته . الخطاب يفيد أن المصلحة قررت فصله عن العمل لتغيبه .

قابل المدير ، ومدير المدير ، وتنقل بين عدد من مكاتب المسئولين . لم يقتنعوا بحديثه وطالبوه بمستندات ووثائق تثبت صحة ما يدعيه .

*

بفطرة غريزية أعرف رائحتها . حقيقة لا تشبه رائحة العطور الغاليّة او الرخيصة ، ولكنها رائحة خاصة تخدر حواسي بنشوة ثائرة . سرنا متشابكي اليدين على حافة النهر . خلعنا حذاءينا وجرينا فوق الأرض المشققة وأصابعنا متعانقة . لم ينهكنا الجري ، ولكنه ظل الشجرة هو الذي أوحى إلينا بتلك التنهيدة العريضة والجلوس اليه . همت بالحديث ، وهممت أنا الآخر ، لكننا لم ننطق شيئا فتداخلت ضحكتنا .

*

قال ابن بطوطة :

وكان خصيب أحقرهم ، إذ كان يتولى تسخين الحمام . فخلع عليه وأمره عليهم ، وظنه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالإذاية حسبما هو المعهود ممن ولي

عن غير عهد بالعز . وتفصيل ذلك أنه كان قد وصل إليها بالعشى وهو قليل ذات اليد ، فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فألا حسناً ، فقعد قريبا من بابها إلى أن دخل جميع الناس وجاء وقت سر الباب ولم يبق هنالك سواه ، فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه وقال متهكما : ادخل يا قاض .

فقال : قاض إن شاء الله . ودخل .

قال : فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون ان القضاء لا يتعداه ، وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ، ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه . وحضر لذلك أحد الحذاق من المجتمعين فقال لهم : لا تفعلوا ذلك فإني عدلت طالع ولايته وحققته فظهر لي أنه يحكم أربعين سنة . فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه .

*

قابله المسئول بشيء من عدم الاكتراث . وبعد أن استمع إليه ، هز رأسه آسفاً :

ـ لا نستطيع أن نعطيك شيئا .

ـ لم أكن حبيساً لمدة تسعة شهور هنا ؟

ـ هذا حقيقي .
ـ إذن . ماذا يمنع من أن آخذ ما يفيد هذا ؟
ـ لأنك لم تكن على ذمة قضية .
ـ والحل ؟
ـ مع شدة أسفي . لا أملك لك حلاً .

تلفت حوله . كانت الرؤوس كلها قد زاغت في مكاتبها . لم يجد ما يتشبث به فخرج .

*

توقفت سيارة فارهة الى جوارنا فجأة . هبط منها ثلاثة مماليك في ثيابهم الرسمية . دفعني واحد منهم وركلني الثاني ولكمني الثالث في بطني . سقطت على الأرض وانا ممسك ببطني . جذبوا حبيبتي داخل السيارة . انطلقوا مسرعين وأنا أتابع نظرات الذعر في عينيها . وعلى جانبي الطريق تجمع بعض الحرافيش ، وسمعت تصفيقهم قبيل هبوط سحابة الظلام .

*

في الميدان الفسيح ،وقف مع المتحلقين. لم يكن لديه ما يفعله . كان قد قضى الأسبوع الماضي متردداً بين مكتب الوزارة التي يعمل بها وبين جهة محبسه دون أن يصل لشيء .

اقترب قليلاً بعد أن زاحم مع المتزاحمين . كان في وسط

الحلقة ساحر يعرض فنونه . عندما أحال المنديل أرنبا ، صاح صبي صغير . . . تصفيق حاد . هلل الجميع وصفقوا . لم يستطع أن يحتفظ بسكونه وإن احتفظ بذهوله . رأى نفسه هو الآخر يصفق .

البحث عن زمن ضائع



مالت عليّ بجذعها فلامست أطراف شعرها بعضا من وجهي وكتفي . كان عامراً برائحة حلوة لا يزال بها شيء يتحدث .

كانت لفتة سريعة ، اعتـدلت بعدهـا وقالت من خـلال دل متخاذل . . . . الا تزال . . . قلت وأنا اجاهد الا تكشف نبرات صوتي خبيئة داخلي . . ومن يراك ولا يقع صريع حبك ؟ . قالت عـابسـة بعض الشيء . . أرجـوك . . أني جـادة . إذا كنت لا تزال ، فما رأيك في أن نتزوج .

باغتتني المفاجأة كنكتة سخيفة . ولم أستطع الا أن اقول . . . أفكر في الأمر .

*

أبتي هناك إنسان لا نظير له . يهبط من التلال . إنه يشبه أحد الخالدين في السماء . وهو يجوب التلال مع وحـوش البريـة ، ويأكـل العشب. إنـه يمشي خـلال

أرضك ويرد آبارك . أما أنا فخائف ولا أجرؤ على الاقتراب منه »[1] .

*

جذبني من يدي جانباً وابتسم قبل أن يقول . . . تخيل من كانت معي قبل مجيئك مباشرة ؟ .

ولم يترك لي الوقت للتفكير ، فأشار إليّ اشارة فهمت منها مقصده . لم يكن يعلم بما بيني وبينها ، فأبديت شيئا من الدهشة المتسائلة . اقترب قليلا وهو يهمس محاذراً :

ـ كانت تحاول اغرائي على الزواج بها .

جاهدت الا اقهقه . مسكينة زميلتنا هذه بلا شك . ولها العذر كذلك . تقف على أعتاب شيخوخة باردة . كان لها في شبابها جمال مسكر لا تشعر به الا بعد أن تتخطاك . تنقلت بين أيدٍ كثيرة ومع هذا لم تتزوج بعد . كنت واحداً من الذين أسكرهم دفؤها الخمري . ومع أني قلت لها مراراً إني أحبها ، إلا أني لم أفكر مطلقاً فيها كزوجة .

*

قالت المرأة : أي انكيدو ، كل الخبز ، إنه مادة الحياة . اشرب الخمر ، إنها العادة في هذه الأرض .

هكذا أكل حتى امتلأ وشرب الخمر القوية . شرب سبعة كئوس . عندئذ ابتهج . طرب قلبه ولمع وجهه »[٢] .

*

سعيتُ ابحث عنه ، لا أعرف بالضبط ما هو ، لكني موقن أنه موجود وبالتحديد في نهاية الطريق . كان الطريق ممتلئا بالمخلفات البشرية ، وكنت حافياً ومع ذلك فقد وفقت في الوصول إلى نهايته ، من غير أن أتلوث .

تفحصت كل شيء . لم يكن موجوداً . وعلى جانبي الطريق تكومت أجساد بشرية متعفنة وإلى جوارها بعض المرضى في طريقهم إلى الموت .

ولم تطل حيرتي ، فأمسكت بطرف ثيابي ، وتحاملت على أطراف أصابعي ، وقفلت راجعاً .

لم يزعجني في طريق العودة زيادة المخلفات التي تطلبت مني مجهوداً مضاعفاً في الحرص بقدر ما أزعجني ذلك الطائر المخيف . يسد الفضاء بجناحيه ، وينقض بصفير حاد يبعثر كل شيء . أيقنت أني هالك لا محالة ، فحزنت من أجل نفسي . أشار بعض المرضى ممن تمكنوا من الكلام . . لا تخافه . فقط اطعمه .

حط الطائر في منتصف الطريق ، وتحامل القادرون من

المرضى فجذبوا اليه بعض الجثث يحملونها إلى منقاره فيلتقطها ، ووجدتني أترك طرف ثيابي وأتعاون معهم .

*

نجحت في اصطياده زوجا ، كانت المفاجأة هذه المرة من الآخرين . تهامسوا في البداية ، ثم تحدثوا بحرية أكثر بعد أن رحلا كما يفعل الكثيرون هذه الأيام للحصول على المزيد من بادية المال .

اجتهدت في الأيام الأخيرة في الحصول على مرافق لها ، فعرضت نفسها على الجميع بلا استثناء .

لم أشارك في الحديث احتراماً لأشياء كانت بداخلي ، وإن لم أمنع نفسي من الاصغاء لما يقال .

تزوجا على عجل ورحلا مسرعين . ورويداً رويداً قل الحديث ، وانشغل المتحدثون بأمور أخرى .

*

« رقد إنكيدو وحيداً في مرضه ، وافضى بما في قلبه لجلجاميش : يا صديقي ، لقد رأيت الليلة الماضية حلماً آخر . أنت السماوات وجاوبتها الأرض ، وقفت وحيداً أمام كائن رهيب . كان وجهه كئيبا كغراب أسود انقض علي بمخالب نسر وأمسكني بقوة . عصرني

حتى اختنقت ، وإذا ذراعـاي يتحولان إلى جنـاحـين مكسوين بالريش . أخذ يحدق فيّ ، ثم قادني بعيداً إلى قصر إيركالا ؛ ملكة الظلام ، البيت الذي لا يعود منه أبداً من يدخله ، الطريق الذي لا رجعة فيه »[٣] .

*

لم يبد على الطائر الرغبة في الشبع . حشوت جوفه بعدد لا أذكره من الجثث ولم يتـوقف عن فتـح فمـه . من وقت لآخـر يصفق بجناحيه ، فتتحسر المخلفات من حوله لتصنـع مداً عـلى جانبي الـطريق . ورأيت نفسي مطالبـا بمـزيـد من السعي بـين الجثث ومنقارة، فقد توقف الآخرون . سقط بعضهم ، ولم يقـو البعض عـلى المتابعـة . فجأة وبـدون مقدمـات ارتفـع الـطائـر ذاهبـا ، ووجدتني وحيداً في منتصف الطريق أحمل جثة بين يدي . تأملتها للمرة الأولى . كانت لطفل لم يتجاوز العاشرة . عيناه تحملقان في فراغ ، وعلى فمه صرخة رعب .

*

جلستْ في الـطائـرة وحيـدة الا من همـومهـا وثـوب أسـود يغطيها . لم يمض وقت طويل منذ استقلتها مـع زوجها . بضعـة شهور حلمت فيها بالبيت والرفقة والاطمئنان . ومات الزوج ، لم يمرض ، ولم يكن كبير السن . ولكنه مع هذا مات . استيقظت من النوم في الصباح ولم تجده قد سبقها كما كانت عادته . حاولت

أن تنهضه . كان قد مات .

وتمت الاجراءات في حلم مزعج صامت . وحمل جثمانه إلى الطائرة لتعود به محمولاً .

لم يتبق معهـا من المـال المـدخـر الا القليـل بعـد انهاء الاجراءات . وانحدرت دمعة تركتها تسقط من حجرها .

*

لقد قيلت أشياء غريبة . لماذا يتكلم قلبك كلاماً غريبا ؟ إن الحلم الذي رأيت كان عجيباً ، ولكن الرعب كان هائلاً . . .

وأمـا أنت أيتها المـرأة ، إني لألعنك لعنـة هائلة . سيتـرهل جسدك ، ويصبح الطريق بيتك . وفي ظل جدار يكون سريرك . وسوف يلطم خدك المخمور وغير المخمور على السواء[٤] .

*

على أرض المطار وقفتْ وحيدة . وأحست بغربـة مؤلمة مـع كثرة من حولها . لم تكن قد أبرقت لأحد لينتظرها في المطار عنـد عودتها . تلفتت حولها في ذعر ، وتداخلت في نفسها . الناس من حولها مشغولون بأمورهم . سارت بينهم بخطى متخاذلة . وكان عليها ان تذهب لتستلم أشياءها وجثة زوجها .

هوامش

١ ـ ٢ ـ ملحمة جلجاميش : مقدم إنكيدو .

٣ ـ ٤ ـ ملحمة جلجاميش : موت إنكيدو .

المدينة الملعونة



في ايقـاع بطيء متخـاذل ، دفع بـالمفتاح ضـاغـطاً عليـه . تعـاون مع قدمه وكتفه فتحرك الباب في صريـر قاطـع اقشعر لـه بدنه . هذه هي المرة الأولى بعـد أكثر من أربعـين عامـا ، التي سيبيت فيها بمفرده في الشقة . رحل الجميع ولم يبق سواه . تزوج من تزوج ومات من مات . اليوم ودع آخر من كان منهم معـه ، وعاد وحيداً الا من ثلاثة وسبعين عاماً .

كـان جائعـا ، ولم تكن به رغبـة في طعام ، جـرَّ نفســه إلى المطبخ ، وابتلع بعض الأشياء .

أطفأ الأنوار كما كانت عـادته ، وفي حجـرة نومـه اجتهد في خلع ملابسه وألقاها كيفما اتفق . أطفأ نـور الغرفة وألقى بنفسه على الفراش وحاول أن ينام .

لم يستطع أن يغمض جفنيه ، فظل محملقاً في ظلام الغرفة . ارتعش قليلا قبل أن ينهض ليضيء كل أنوار الشقة ، ويعود من جديد للفراش .

*

قال المسعودي :

وسألهم هل ركب هذا البحر أحد قط ؟ فقالوا جميعا إنه ما يستطيع أحد أن يركبه ، وأخبروه انه ربما أظله الغمام فلا يرونه .

قال : فسار بهم حتى بلغ إلى مملكة الزموم الذين يأكلون الناس ، فخرجوا إليه عراة بأيديهم حراب الحديد ، وخرج ملكهم على دابة عظيمة الخلق لها قرون . وكان جسيما أحمر العينين . فجاوزهم إلى قوم على خلق القرود لهم أجنحة خفاف يلتفون بها من غير ريش .

ومر على البحر المظلم ، فلما أمعن في السير فيه غشيهم منه غمام ، فرجع متيامنا حتى انتهى إلى جبل بنارس ، فرأى فوقه تمثالاً من حجر أحمر يومىء بيده أن ارجعوا وعلى صدره مزبوراً : « ما ورائي أحد » .

*

عندما اقترب موعد السفر ، شعرت بهبوط حاد . شيء غامض داخلي ينزع أحشائي ويسقط بها في هوة عميقة عميقة . وربما كنت متوتراً شيئا ما ، إذ أنني في الواقع لم أكن واعياً بالقدر الكافي لرصد حركاتي .

أخـذت أدور في أرجاء الشقـة باحثـاً عن شيء ما . لملمت بعض الأشياء كيفما اتفق ووضعتها في حقيبتي . بين الحين والآخر ألتقطُ شيئاً آخر، ربما احتجته . أعيد فتح الحقيبة وأضعه . هكذا لم يعد بالحقيبة مكان لشيء .

وتوالت القرارات . في كل لحظة قرار جديـد . وفي النهايـة تشجعت واستسلمت ، ووجـدتني مسـاقـاً إلى السفـر بـلا رغبـة حقيقية .

*

وقف في وسط الميـدان شاهـراً سكينه الـطويل . غمـده في بطنه . شق البطن ، فتدلت أمعاؤه وسقط على الأرض في بـركة دم .

تناثرت الكلمات في الطرقات . أشاعـوا أنه انتـزع أحشاءه وقطعها على منضدة أمامه ، وأخذ ينادي عليها كالبـاعة قبـل أن يسقط .

ورددت النسوة همساً . . . لم تكن احشاؤه ، لقد قطع . . . وتداخلت عيونهن في نظرة شبقة . وقطعه قطعاً قطعاً . وتلاصقت وجوههن أكثر .

عنـدما جمعـوا القطع المتنـاثرة ، وجـدوها نـاقصة قـطعـة . وابتعدن متسائلات في صوت واحد . . . . من أخذتها ؟

أظلمت المدينة مبكراً الا من بعض الأصوات الحذرة . ومن شرفتي في حذر متطلع تابعت الأشباح المتفرقة بجوار الحائط تهرول مبتعدة .

قال صديقي . . . هذه مدينة عطس فيها الشيطان . وتحيرت . . . ماذا جاء بي هنا ؟ . كان غباءً مني أن تسرعت في الرحيل . لكني وجدت الجميع متحمساً ومندفعاً ، فخطأتُ نفسي ، وقلت . . لعلهم على حق .

*

قال :

فلما عدا وادي الرمل ، جاز إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود المظلم . فسمع جلبة وصياحاً هائلاً ، فخرج في شجعان من أصحابه يتبعون ذلك الصياح حتى أشرف على سباع عظيمة غريبة الخلق ، مخزومة الانوف . وبعضها يغير على بعض فيأكل بعضها بعضاً . فعلم أنه لا مذهب له من ورائها فرجع وعدى وادي الرمل ، فمر بأرض العقارب ، فأهلكت بعض أصحابه فرجعوها عن أنفسهم بالنار وبالرقى والعزائم التي كانوا عرفوها حتى جاوزها » .

*

صاحت في ذعر وهي تحملق في كفها . . . دم ، دم . كانت القطرات الدافئة قد اندفعت مع تصبب العرق البارد ، وأحست بدوار ، فاستندت ملتصقة بجدار ولم تدر ماذا تفعل . امتلأ الطريق بالسائل الساخن ، فخلعتُ حذائي وشمرت عن ساعدي وغصت فيه .

امسكتُ الحذاء بيد ، وبالأخرى قطعة أسفنج أغمسها وأمررها على وجه الحذاء .

لاحظت أنه لم يسقط من قطعة الاسفنج على وجه الحذاء شيء ، وإن تلطخت يدي بالدماء التي أخذت تتقطر بين فرجات أصابعي .

ما بين الحين والحين ، ارفع ظهري قليلاً ، فتصطدم عيناي بعينيها الشاخصتين في فراغ .

*

قضيت الليل في نوم متقطع ، اتطلع للصباح . , ومع اول شعاع للنهار نهضت وتطاولت أنظر الطريق . كانت السماء صافية لم يشغلها شيء ، والمنازل لا زالت نوافذها مغلقة ، وهواء الصباح الندي يهدهد أحزاني . ومع ذلك لم أشعر بالارتياح .

تسمعت هنا وهناك ، ولما لم أجد ما يدل على شيء ، عاودني السؤال من جديد . . . لماذا جئتُ هنا ؟ .

قال :

فنزل إليه رجل منهم يقال له ميدوش ، وكان من أفاضل الحكماء ، وقد غطى شعره جسده . فقال له أيها الملك المغرور أين تريد ، وقد مدّ لك في الأجل ، ورزقت فوق الكفاية ؟ ففيم تتعب نفسك وجيشك ؟ هلا قنعت بما تملكه ، واتكلت على خالقك الذي وهبك الغنى ، وأعانك بهذا الخلق !

*

ابتدرني صديقي من بين ابتسامته الرقيقة المعهودة :

ـ كيف الحال ؟

قلت . . . الا يمكننا العودة ؟

قال ولا تزال الابتسامة المطمئنة تملأ وجهه :

ـ ألم تسمع الأخبار ؟ لم يعد هذا ممكنا ، على الأقل الآن . فقد أغلق المطار .

العبث



برغم تسامحي الشديد مع نفسي ، لكني لم أستطع أن أتسامح معها هذه المرة . فكلما تداعت الأشياء في نفسي ، تدافعت المرارة في حلقي ، وهالتني سقطتي التي لم أجد لها ما يبررها .

ابتلعت الحسرة في صمت جاهدت الا يكشف عن شيء ، وتمتمت في مذلة :

ـ فليكن ما يكون .

*

أطل الخوف من فرجات النوافذ ، وقد أظلمت المدينة مبكراً مع اختفاء آخر شعاع لشمس اليوم ، وخلت طرقاتها من علامات الحياة . وبين الحين والحين تنعكس ظلال المنازل في ضوء مذعور فتبدو شواهد مقابر ريفية تعصف بظلالها رياح شديدة .

كانت ليلة قلقة لنهار لم تسكت فيه أصوات الدمار لحظة .

*

قالوا : وكانت دنيا زاد أجمل الجميلات ، فأقسم أبوها السلطان الا يزوجها الا من أفرس الفرسان .

واستمر حفل العرس أربعين ليلة ، عمت الفرحة فيها أرجاء السلطنة ، فسهر الناس حتى الصباح ، وارتدوا أجمل الملابس وتناولوا أشهى الأطعمة على الموائد السلطانية ، ونعموا بالغناء والرقص والموسيقى .

قالوا : أما جهاز العروس الجميلة ، فكان حمولة ألف ألف ناقة . وأفاضوا في وصف الرياش والطنافس والثياب الهندية والشامية وعقيق الفرس وفيروزه ومرجان الخليج ولؤلؤه ، وما استجلب من بلاد الروم ، وما أهدى من بلاد السند .

قالوا : ولكنهم في غمرة التجهيز والاعداد ، نسوا شبشب الحمام . فلما أرادت الأميرة صبيحة زفافها أن تأخذ حمامها ، تفقدت الشبشب فلم تعثر عليه ، فكان أن أخذت حمامها بدونه ، فأصابها من ذلك برد شديد الزمها الفراش لأيام وقعت خلالها فريسة حمى أعجزت الأطباء . قالوا : فلما كان اليوم لتاسع اشتدت عليها الحمى . فماتت .

*

على جدران البيوت المهدمة ، علقت بعض الصور لأطفال لم تخضر شواربهم بعد . بأسفلها عبارات حماسية ، وهذا رسم

الشهيد المقاتل ، أدى واجب الوطن في المعركة .

في الطريق تستقبلك فوهات المدافع . وخلف المتاريس أطفال يحملون بنادق أطول من قامتهم .

عندما استوقفني أحدهم يطلب مني هويتي وبندقية الآخر إلى صدري ، أحسست بدوار عنيف . ناولتها إياه وأنا في ذعر يبحث عن ملاذ في عيون الآخرين . فحصها بعناية من لا يعرف القراءة . تفحصني ملياً قبل أن يردها ويسمح لي بالانصراف . هرولت مسرعاً ولم انظر خلفي .

*

لعلك ادركت الآن يا سيدتي أنه لم يكن لديك ما أسمعه ، وان ليس لديّ ما أقوله لك . اما كيف حدث ما حدث ، فشيء لا أعرف له تفسيراً .

تُذّكرينني سيدتي بأمور لا رصيد لها عندي . تَسْعَين إلى ابتعاث وهم تعيشينه وحدك .

معذرة سيدتي ، فقد تعودت أن أحترم مشاعر الآخرين ، ولكن لا أملك ما أقدمه لك رغم أحساسي بما تعانين . فليساعدك الله بقدر ما تقدرين ظروفي .

*

تدفق المقاتلون من كل ناحية . حاصروا المدينة وأمطروها

بقذائفهم ، وتوالى انهيار المنازل على صراخ من فيها .

استصرخني جاري أن أهبط معهم إلى بدروم البناية . لم تكن لدي الرغبة ، ولكني أمام إصراره هبطت معه .

استقبلتني عيونهم متفحصة للحظات انصرفوا بعدها إلى شئونهم . اشتد القصف بالخارج ، وهمس لي جاري بأننا هبطنا في الوقت المناسب .

ارتفع صراخ الأطفال ، ولم تنجح اشارات الرجال لهم بالصمت حتى يتمكنوا من متابعة الأخبار وقد ألصقوا أجهزة الراديو الصغيرة بآذانهم .

طالت وقفتي ، ولما فشل الآخرون في اشراكي حديثهم ابتعدوا قليلاً فغرقت في بحر أفكاري .

تنبهت فجأة خلال لحظة صمت . كان الصغار قد غرقوا في بحر هادىء . نام البعض ، وظل البعض متشبثا بأذيال الكبار .

كسر أحدهم جدار الصمت معلنا . . . يجب أن يخرج واحد منا بالتناوب ليبحث لنا عن شيء نأكله . وجدتني أقول بلا وعي معالجاً لعثمة أغرقتني بالعرق البارد . . . أنا .

*

ما آلمني أن هذه كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بحماس

لشيء ما . لكن اللحظة التالية كانت افاقة ضيعت كل شيء .

استعدت للحظة خاطفة كل الأحداث . وكانت اللحظة كافية لاقناعي بضرورة أن تنتهي وان انتهي معها .

كنت حزيناً ويائساً . للمت ما تبقى من أشيائي المبعثرة وابتسمت في مرارة آسية :

ـ فليكن إذن ما يكون .

الموت في شوارع المدينة



في حجرتي المظلمة الا من ضوء شمعة شاحبة ، تمددت أتسمع أنفاسي ونبض الساعة في معصمي . كان التيار الكهربي مقطوعاً شأن معالم الحياة هنا ، فقد كانت المدينة في حرب وتطلبت دواعي الطوارىء هذه الاجراءات . تدثرت بكل ما عثرت عليه ولم يتوقف الاحساس بالبرودة . كنت أريد أن ألعن الظروف التي أوجدتني هنا ، ولكني وجدتها متأخرة . فات أوانها . كما أني لعنتها آلاف المرات منذ حضرت .

في الصباح توجهت لشراء الخبز . كان الازدحام لا يبشر بقدرتي على الحصول على شيء . قفلت عائداً وأنا أفكر في بديل أعرف انه لا وجود له .

*

قال لسان الدين ابن الخطيب :

« وكان قد بث رجاله بتلك النواحي ، وانتبذ هو في عودة النهر قبالة القصر يرتقب الميقات إلى أن تألف إليه

من أصحابه اثنا عشر فتى ، فـانكفى إلى هنالـك وقد بث العصابة أمامه ، فتكنفوا الباب كأنهم نظارة إلى أن طلع عليهم ، فشهر سيفه وهجم للحين على صاحب المدينة واقتحم عليـه مجلسه ، فجيء بـه مختبلاً لفـرط جزعه ، فأمر بضرب عنقه بين يديـه ورفع رأسـه على قناة .

وحـين ابصـرت العـامـة الـرأس ، تـداعت كالسيول ، فقـويت بهم نفسه ، وجعـل يحركهم عـلى العامرية ويخاطبهم بوجه قيامه واحتسابه » .

*

عندما توالت أصوات الانفجارات والقذائف ، انكمشت في نفسي ، وتعطلت أجهزتي الـداخلية والخـارجية . كنت كمن لا يشعر بشيء . فقط كان دوي الانفجارات يشرخ سمعي في تتابع متلاحق . بلا وعي ، احتميت بركن جدار الغرفة وتصلبت . لم أعرف ماذا يمكن أن أفعل .

وكـما توالت القـذائف فجأة ، تـوقفت فجأة ، وأفقتُ عـلى أصوات آدمية بالخارج تعدو على الدرج . تحسست نفسي . كنت لا أزال حياً ولم أصب بشيء . صدفة أنني لا زلت حياً . تفقدت الغرفة . كان زجاج الغرفة مبعثراً ومتناثراً في الأرجاء . ونسمة

باردة تطارد محتويات الغرفة . وكنت عاجزاً عن أن أفعل شيئا .

تذكرت أني كنت أعد طعاماً قبيل الانفجارات . تمالكت نفسي قليلاً ، وعلى باب المطبخ ، كان كل شيء متفحماً . انسحبت ، عليّ أن أطمئن على الآخرين .

*

صدقيني يا سيدتي . لم يعد بقلبي مكان لأحد . شاخت كل الأشياء ، وتبلدت المشاعر ، ولم أعد أصلح لشيء .

تتحدثين عن زمن لم أعد أتذكره . وتتعلقين بأذيال حبال هوائية . تسعين إلى أحياء ما لا أذكر أنه كان . عندما رأيتك هذه المرة بدت ملامحك نسيجاً شاحباً بلا معالم . لا أذكر متى رأيته من قبل . وعندما ذهبت ، ضاعت قسمات الصورة ولم أجد منها سوى قشعريرة باردة صفراء .

معذرة سيدتي ، فلا يمكنني تحمل المزيد .

*

قال :

« وانتهب الزاهرة ، فتقسمت الأيدي كل ما اشتملت عليه من مال مخزون وآلة ومتاع وعدد سلطانية وفرش وآنية حتى اقتلعت الأبواب الوثيقة والخشب الضخمة » .

قال : ولما فرغ من تحويل ما كان بالزاهرة أمر

بهدمها وحط أسوارها وقلع أبوابها وتشعيث قصورها وطمس آثارها ، وتعجيل ذلك . وسوغ الناس أنقاضها فبلغوا من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لا يبلغه الدهور المتعاقبة ، فأصبحت بلقعا كأن لم تغن بالأمس » .

*

تناثرت المحتويات أمامي . كان عالماً هائلاً من الصور والأحداث . وتوالت اللمسات متداعية ، وتلاحقت المشاهد المعجونة بالشهوة . فاح العطر في كل مكان ، واختلط برائحة العرق والجنس . حفل المشهد بالألوان المزركشة وتبعثرت القطع الصغيرة المثيرة . زحفت التفاصيل الدقيقة نحو أنفي وغمرت عيني وتزاحمت في مسمعي ، وتلونت الضحكات البلورية . لمّا لمْ تنجح في ابتعاث شيء بداخلي ، قفلتْ عائدة . ورأيت نفسي من جديد وحيداً في غرفتي الشاحبة .

*

لم تكن المحاولة مؤكدة النجاح ، ولكنها كانت محاولة على أية حال . في طريقي مررت في بعض شوارع المدينة . كان الموت يلف كل شيء ويغطيه بلون رمادي متفحم . لم تعد هناك معالم يمكن أن تذكرك بشيء . اختلطت الأبنية المتداعية وتكومت إلى

جوار بعضها البعض وتناثرت محتوياتها بلون الفحم .

خارج المدينة تجمع البعض . تفحصت وجـوههم . لم أجد وجها أعرفه . ربما ضاع الآخرون . سبب آخر للحزن .

كـان المتجمعون في انتـظار من يـأخـذهم الى مكـان آمن . بإستثناء الاعياء لم يبد عليهم شيء . كـانوا منسـاقين يتحـركـون بآلية ويرقبون الفراغ في انتظار المعجزة .

شوق بلا شطآن



استيقظ الجيران على صوت الارتطام . كان الوقت بعد مبكراً ، وأسفل الدرج تكوم العجوز وإلى جواره تناثرت بعض الملابس . اتجهت أبصارهم إلى مكان واحد . كان الابن يقف غاضباً في مدخل الشقة . قبل أن ينطقوا بكلمة أسرع فأغلق الباب بصوت حاد . هرولوا إلى العجوز لاسعافه .

يعرفون ان الابن منذ وقت في شجار دائم مع أبيه . يريده أن يترك الشقة الى الملجأ أو أي مكان يختار لأنه يريد أن يتزوج بها . لم يتصوروا أن تصل الأزمة بين العجوز وابنه إلى هذا الحد . يطرده من الشقة . استغفر الجميع وطلبوا من الله الستر . ساعدوا العجوز على النهوض . قال لهم . . . إنه لا يريدني . شقتي . . وأين أذهب ؟ انسحبوا واحداً في اثر الآخر . تركوه وحيداً مع ثيابه المتناثرة في مدخل البيت .

*

شكا الثعبان إلى شماس اله العدالة التهام النسر لصغاره :

« وحين سمع شماس صلاة الثعبان فتح فمه وقال :
اذهب في طريقك حتى تصل الى الجبل ، وسأحجز لك جاموسة . افتح امعاءها واخترق بطنها . واتخذ بطنها مسكنا لك . وستنزل من السماء كل أنواع الطيور لتأكل من لحم الجاموسة . وسينزل معها ، وسيبحث عن مدخل إلى اللحم . وسيحلم بالمكان الخفي للقلب . فحين يصل إلى الداخل ، اقبض عليه من أجنحته . واقطع هذه الاجنحة وريشها ومخالبه ، ومزقه وارمه في حفرة . ودعه يموت ميتة الجوع والظمأ . ونزلت كل طيور السماء ، وأكلت من اللحم . ولو كان النسر يعرف ما قدر له من سوء طالع لما نزل مع صغاره ليأكل من اللحم » .

*

الأرض مشتاقة لحرثك ، عطشى لمائك ـ فهل تأت . اسرع بالله عليك ، فالقحط يهدد أرضك . لقد جفت وتشققت وأخشى الا تعود صالحة لاستنبات بذورك اذ تغرسها . ألم يصلك صوتي ، فتشم فيه رائحة الظمىء الملهوف . شوقي بلا شطآن . فترى أين أنت .

*

جلس رزينا متأنياً . قدمتُ له السيجارة ، فأخذها بأصابع واثقة . وافق على أن تكون القهوة مضبوطة . قال للمحقق بين

رشفات القهوة ودخان السيجارة :

نعم ، لقد قتلت والدي . لم أحرمه حقاً ، فقد انتهت حياته حتى لحظة موته . هو الـذي كان يـريد أن يحـرمني من حقي في الحياة . أراد أن يعمل فعمل . أراد أن يتزوج فتـزوج . أراد أن ينجب فأنجب . ماتت امرأته من زمن ، ولم يعـد يعمل ، فلمن يعيش إذن ، ولماذا ؟

وعلى كل فقد كان لا بد أن يموت . فقد انتهى أجله هكذا ولا بد . أكمل رشف قهوته في استرخاء هادىء .

*

غابت عنها الأخبار ، ولم أجد ضرورة لأن اخبرها بها .

فتحت الباب ، ووجدتني أمامها . احتـوتني في شوق غـامر وأمطرتني بحنان مسكر .

من الداخل كانت تتحسس ملامحي بأصابعها الحالمة . قالت بين أصابـع اللهفة . . . أريـده مثلك . شبهك تمـاماً . لم أجب بشيء . نظرتْ في وجهي واستغربت جمـوده . لم تكن تعرف أني فقدت كل شيء ، ولم أعد أصلح لما تريده .

*

لم اكد أصل الى الحياة حتى عبرت الزمن المحدد ، فاستدرت

إنه شر . . . وشر أكثر . زاد الجور عليّ ولم استطع بلوغ حقي . صرخت إلى الهي ، ولكن لم ينظر إليّ . . . » .

« ما أكثر اختلاف الأصوات في العالم . لقد نظرت ورائي ، فوجدت الشر في عقبي ، كأنما لم أكن أقدم التقدمات بانتظام لإلهي ، فكنت كمن توقفت الصلوات والابتهالات في فمه . وكنت كمن انتهى يومه الالهي . لقد مات القمر الجديد . القبر مفتوح ، ومسكني تم الاستيلاء عليه . وانتهى الحزن علي حتى قبل أن أموت . لقد ردد كل الناس . . كم هو مهدم » .

● الاناشيد من الأساطير البابلية القديمة .

العطش



وقدت العجوز ثمانية مواقد أمام ثمانية أركان . وعلى مائدة خلف كل موقد وضعت أوان من نبيذ السمسم وستة وثلاثين رغيفا . ومزيجاً من الزبد والعسل ثم أخيراً الملح .

طلبت العجوز من الفتاة أن ترقد في وسط الغرفة على ظهرها ، وأن تباعد بين ساقيها . وضعتْ العجوز الموقد الكبير أمام رأس الفتاة . أخذت تنفخ فيه وبين يديها بقرة منتفخة البطن أوشكت على أن تلد صغيرها .

تمتمت العجوز وهي تشير بسكين طويل بين بطن البقرة وبطن الفتاة الراقدة على ظهرها . . . « السيد العظيم إيا أرسلني . لقد أحل رقيته المقدسة محل رقيتي . ووضع فمه المقدس مكان فمي . ووضع لعابه المقدس مكان لعابي . ووضع صلاته المقدسة مكان صلاتي » .

شقتْ العجوز بطن البقرة . نزعت صغيرها . ذبحته بين فخذي الفتاة الراقدة ، فسال الدم بينهما . قسمتّه إلى ستة أجزاء

ووضعته عليها . طهرته بالماء ، وأحضرت الموقد والمشعل .

وضعت بالقرب من الباب المغلق مرتين ؛ سبعة رغفان سويت تحت الرماد . قدمت الحمل المنزوع من بطن أمه . اللحم بديل اللحم . والدم بديل الدم . دع الشياطين تتقبله . إن القلب الذي وضعته إلى جانب فراشه ، اعطه بدلاً من قلبه ، وليتقبلوه » .

تكاثفت سحب الدخان ، وتحركت بينها ألسنة المواقد رؤوساً من نار . « رأس الحمل بدلاً من رأس الإنسان ، لقد قدم الرأس . عنق الحمل بدلاً من عنق الإنسان ، لقد قدم العنق . صدر الحمل بدلاً من صدر الإنسان . لقد قدم الصدر » .

*

قالت شوق لبدر البدور : أريدك أن تبرهن لي على حبك ؟ قال لها : اطلبي ما تشائين . قالت . . . أريد قلب أمك .

في البداية لم يخطر بباله ما تقصده ، فأجابها ببساطة . . تعرفين أنك تملكين قلب أمي ، فهي تحبك وتحمل لك في قلبها اعزازاً خاصاً، أشاحت بوجهها . لكنك لم تفهم مقصدي ؟ أريد قلب أمك هذا الذي بين صدرها . تنزعه ، وتحضره لي . هكذا تبرهن لي على حبك .

رفض بدر البدور. لكنه أمام إلحاح شوق ، ورغبته

الشديدة فيها . فعلها . حمل القلب الساخن بين يديه وهرول مسرعاً إلى شوق . لم يلبث أن تعثر وتدحرج فوق الأرض ، وأمامه قلب أمه . نما للقلب يدان امتدتا فحالتا بين شوق وبين استمرار التدحرج . ترامى إليه صوت كصوت أمه . صاح الصوت . . . يا رب احفظ ولدي . امتدت اليدان إليه ، وقد صنعتا وعاءً فاض بالماء . شعر شوق أنه كان محتاجاً لجرعة ماء ، فقد كان ظمؤه شديداً .

*

عندما سقطت على الأرض ، لم تعط للأمر أهمية حتى كادت تنساه . بعد ساعات قليلة شعرتْ بشيء ساخن ينساب بين فخذيها . تنبهتْ للأمر ، وارتعدت خوفاً من أن تفقده .

نصحها الطبيب أن ترقد على ظهرها لمدة خمسة عشر يوماً بعد أن أعطاها الدواء المناسب لتثبيت الحمل .

توقف نزيف الدم . مضى اليوم الأول دون متاعب تذكر ، فهنأها الطبيب والجميع بسلامة الحمل . شعرت بعطش شديد ، فطلبت كوباً من الماء البارد .

*

حملت العجوز وليدَ البقرة بين يديها . طافت به أركان الغرفة . رسمت دائرة في منتصفها . ذبحته بداخلها فسال دمه

وهو يتطلع إليها بنظرة لا معنى لها .

مـلأت العجوز كوباً من دم الذبيح . قدمته للمرأة لطخت به بطنها وفخذيها . أحست بجفاف شديد في حلقها. طلبت من العجوز كوباً من الماء .

*

قال لها الطبيب ان ولادتها ستكون متعسرة قليلاً ، ولكنه سيبذل أقصى ما يستطيع . نصحها أن تلد في مستشفى .

كان شغلها الشاغل هو جنينها الذي يوشك أن يكون طفلاً . تزوجت منذ أكثر من عشر سنوات . لم تترك محاولة الا وبذلتها . كانت في شوق متعطش لأن تحمل وتلد .

في المستشفى قرروا اجراء عملية لاستخراج الطفل . سألت عندما أفاقت من العمليةعن الطفل متحسسةحولها . حاولوا تسريتها وترددت عبارات ؛ كل شيء نصيب . لم يحن الأوان بعد . لم يكتبه الله لك . نظرت في عيونهم . . تقصدون أنه . . . قالوا ، الحمدلله ان نجوت فقد كنت في خطر شديد . صاحت في أسى . . لم أكن أريد أن أعيش . . هكذا ضاع جهد كل هذه الأيام وقد قارب الثمر .

أدركوا ما تعانيه من صعوبة في الكلام ، فبللوا قطعة قطن ماءً . مرروها على شفتيها .

في هذه المجموعة

- الجوع .
- السفر من بلاد الغربة .
- الوباء .
- تصفيق حاد .
- البحث عن زمن ضائع .
- المدينة الملعونة .
- العبث .
- الموت في شوارع المدينة .
- شوق بلا شطآن .
- العطش .



صـــدر للمؤلف

مجموعات قصصية :

١ ــ رحلة منتصف الليل ١٩٦٥ .
٢ ــ اليتيم ١٩٦٧ .
٣ ــ إيقاعات حزينة من زمن الموت ١٩٨٢ .
٤ ــ مشاهد من زمن الغربة ١٩٨٤ .
٥ ــ أبواب الجحيم ١٩٨٩ .

دراسات وأبحاث :

١ ــ لغة الشعر العربى الحديث ١٩٧٩ .
٢ ــ اتجاهات القصة القصيرة فى الأدب العربى المعاصر ١٩٧٩ .
٣ ــ فى مصادر التراث العربى ١٩٨٠ .
٤ ــ مقالات فى النقد الأدبى ١٩٨١ .
٥ ــ اتجاهات الرواية العربية المعاصرة ١٩٨٢ .
٦ ــ فى الأدب العربى المعاصر ١٩٨٤ .
٧ ــ دراسات نقدية ١٩٨٨ .
٨ ــ فى الأدب والنقد الأدبى ١٩٨٩ .
٩ ــ الرؤيا الابداعية ١٩٨٩ .

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٨٢/ ٨٩